الفصل الخامس

حياتي زوجةً

غـادرت متوجهـة إلى نيويورك ومسـتعدة لأبدأ حيـاة جديدة، لكني كنـت قلقة من هذه الحياة مع زوج مثل حمزة. ركبت سـيارة الأجرة مع أبي وعزمي، إلا أننا لم نتحدث بالمرة في طريقنا للمطار. وبعد بضع لحظات أدار السائق الراديو ليكسر هذا الصمت، كانت فيروز تغني كلمات تقول فيها: «**زوروني كل سنة مرة، حرام تنسوني بالمرة**» أشحت بوجهي عن أبي؛ حتى لا يراني أبكي.

ركبنـا أنـا وعزمي الطائـرة التابعة للخطوط الملكيـة الأردنية. لم أكن قد سـافرت إلى الخـارج في طائرة من قبل، لكني لم أشـعر بالخوف، بل شـعرت بهدوء كئيب. وقفت مضـيفة الطيـران فـي مقدمة الطائرة، وقالت دعاء السـفر، ثـم أقلعنا، وبينما نحن في الجو وضـعت سـماعة الأذن لأمضّـي الوقت. استمعت إلى أغنية فيروز نفسـها، ما جعلني أبكي قليلًا ويداي على وجهي، متسائلة: كم من الوقت سيمضي قبل أن أرى عائلتي مجددًا. ثم نظرت إلى الغيوم تمر بالنافذة، وشعرت بأن الطائرة تبتعد أكثر وأكثر عن الوطن الوحيد الذي عرفته، وتساءلت: متى سأعود ثانية؟، هل بعد أشهر أم سنين أم لن أعود أبدًا؟

تخيلت نفسـي أسافر فوق المحيطات مع (أحمد) وأجلس بقربه في الطائرة نتحدث عن بدء حياة جديدة معًا، فقد كان ذلك أقصى أمانينا في أثناء سنين عدة، لكن من المحتمل الآن ألا أراه ثانية، تمنيت بشدة لو أن الأمور أخذت مجرى آخر، لكن ها أنا جالسة بقرب عزمي في طريقي للعيش مع حمزة. لم نتحدث كثيرًا في أثناء الرحلة، ويبدو أنه فهم أنني أريد أن أنفرد بنفسي، ولم يتطفل علي عندما كنت أبكي بصمت، ولم نتحدث إلا عندما أتت مضيفة الطيران تسألنا: ماذا نريد أن نأكل، أو عندما أردت أن أنهض لأتمشى أو أستخدم المرحاض.

هبطنا في نيويورك يوم الأحد عند الساعة ٤:٠٠ مساءً، وهناك قابلنا حمزة في المطار. عانقنـي وقبّـل خدي، لكني لم أكنّ له أي مشـاعر، لذلك لم أردّ له قبلته. ثم سـلمت على أخيه الآخر (رمزي) وذهبنا جميعنا إلى الشقة في منطقة (ستيتن آيلاند) حيث سأعيش أنا وحمزة، وهناك أعد لنا حمزة طعام العشـاء، وجلسـنا لنتحدث قليلًا. كان رمـزي يعيش مع حمزة في

الشقة نفسها، لكنه انتقل للعيش في شقة أخرى قبل أسبوعين من وصولي، وكان عزمي سيعيش معه. كان رمزي طالبًا جامعيًّا في عامه الثاني، وكان عزمي يحضر نفسه للانضمام للدراسة الجامعية؛ لكي يدرس ويعمل في مختبر طبي. وكان حمزة يدفع رسوم تعليمهما، عندما انتهينا من تناول الطعام أوصل حمزة أخويه بسيارته إلى شقتهما، فلم يمتلك أي منهما سيارة. اعتدت أنا في ذلك الوقت أن أغسل الصحون، وأنظف طاولة المطبخ، وبعدها أخذت حمامًا سريعًا، وارتديت بجامتي، وجلست في غرفة المعيشة أنتظر عودة حمزة. وعندما عاد تعجب من العمل الشاق الذي قمت به، وقال: إنه كان يتوقع أن يساعدني على التنظيف أيضًا.

«لا تنسي أنني عشت مدة طويلة رجلًا عزبًا، وأعرف فعل هذه الأشياء أيضًا».

ابتسمت بخجل.

«أعرف ذلك، شكرًا لك، لكني أعمل بسرعة، فقد كنت أعتني بعائلة بأكملها».

«يبدو أنك حصلت على خبرة جيدة».

«آه، نعم، ومن دون أي شكوى» أخبرته بذلك لأتجنب الجدال معه.

ذهبنا لننام دون أن نقول كلمة أخرى.

وفي صباح اليوم المقبل، الأحد، كان حمزة في إجازة، وأخبرني بأنه كان يخطط لأخذي أنا وعزمي في جولة إلى مانهاتن على متن جسر، إلا أن رمزي كان مشغولًا بدراسته، ولم يستطع الذهاب معنا، أخبرني حمزة بأن أجهز نفسي عند الساعة ١١:٠٠ صباحًا؛ لذلك استحممت بسرعة، وارتديت ثوبًا طويلًا وحجابًا؛ حتى أغطي جسمي بأكمله. جلست في المقعد الأمامي، وجلس عزمي في الخلف، وقاد حمزة السيارة، وفي طريقنا نظرت خارج النافذة إلى كل تلك النساء الأمريكيات غير المتحجبات، وتساءلت: كيف ستكون ردّة فعلهن نحوي؟ لكن عندما ركبنا الباخرة كنت مدهوشَةً ومسرورة، عندما اكتشفت أن الناس يبتسمون لي. كان ذلك قبل الحادي عشر من أيلول بكثير؛ لذلك لم يكن الناس يتجنبون المسلمين خائفين، كما يفعلون الآن، على الأقل بحسب خبرتي، مررنا بتمثال الحرية و(إليس آيلاند) واقتربنا من صف من ناطحات السحاب، وأمضينا اليوم نتمشى حول مانهاتن، ثم رجعنا إلى المنزل في المساء.

في صباح يوم الإثنين عند الساعة ٦:٣٠ صباحًا سمعت صوت الدش يُدار، فنهضت

لأعتني بزوجي، كما تعلمت من الوالدة أن أفعل. بحثت في خزانته، وأخرجت بذلة مع ربطة عنق مناسبة، ثم كوَيت ملابسه، وتركتها مرتبة على فراشه، وذهبت إلى المطبخ لأعد فطورًا تقليديًّا كبيرًا يتكوّن من جبنة بيضاء وزيت زيتون وزيتون وزعتر وشرائح طماطم وخيار وشاي. وعندما انتهيت من كل ذلك رجعت إلى غرفة النوم في لحظة خروج حمزة من الحمام. ألقى نظرة على الفراش قائلًا:

«لا أريد أن أرتدي هذه الملابس اليوم».

«حسنًا. سوف أجلب لك ملابس أخرى».

«لا تتعبي نفسك، سوف أجلبها بنفسي.

«لقد أعددت الفطور».

«أنا لا أتناول الفطور، سوف أتناول بعض القهوة وكعكة قرفة في كافتيريا المستشفى، كُلي أنت وحدك، فسأغادر الآن، ولا تنتظريني؛ لأن لدي وردية مسائية اليوم».

حاولت أن أتعرف إلى حمزة أكثر، عندما يكون في المنزل. فعلى الرغم من أنني لم أرد الزواج منه إلا أنني عالقة معه الآن؛ لذلك طرحت عليه أسئلة، وأعددت له طعامًا يمكن أن يعجبه، لكنه أجابني بأنه لا يهتم كثيرًا بنوع الطعام، وسيأكل أي شيء أعدّه. أردت أن أعرف شيئًا عنه وعن الأشياء التي يحبها؛ حتى أحاول أن أكون زوجة صالحة، لكن على الرغم من كل محاولاتي لم يَبْدُ مهتمًّا بأكثر من تواصل سطحي معي، ولم يرغب في تشارك أي شيء. فقد أمضيت معظم وقتي وحيدة، سواء كان حمزة في الشقة معي أم لا. فكرت في الرحيل، لكن لم أعرف إلى أين أذهب، لذلك لم يكن في يدي حيلة إلا البقاء معه.

وفي إحدى الأمسيات كانت هناك حفلة لجميع سكان عمارتنا وعائلاتهم، لكن أمرني حمزة بأن أبقى في الشقة، كنت أجلس بالقرب من نافذة المطبخ، حيث أمضيت معظم نهاري أتفرج على المارّة، الذين كانوا غافلين عن السجن الذي أعيش فيه. وفي تلك الليلة رفعت ستار النافذة قليلًا، وانحنيت نحو عتبة النافذة لأستمع إلى الضحك والحديث القادم من أسفل. وبعد بضع ساعات، عندما توقفت الأصوات المرحة حضر حمزة إلى الشقة يحمل معه طبقًا من الطعام.

«لقد أحضـرت لك هذا، وأخبرت الأطباء الآخرين بأنك لم تتمكني من حضـور الحفلة؛ لأنك كنت متعبة».

« آهًا».

لم أعرف ماذا أقول، لذلك أخذت الطبق بصـمت، وتناولت العشـاء. لقد شـعرت بحزن شـديد؛ لأنني أحب أن ألتقي أناسًـا من ثقافـات مختلفة؛ لأتعلم منهـم، وأعرف معلومات عن بلدانهـم، وأعـد أطباق طعام مختلفة، فقـد أحاط بنا أناس من بلدان كثيـرة مختلفة، لكن لم تتسنَّ لي الفرصة، وأنا مع حمزة للتفاعل معهم ومصادقتهم.

شـغلت نفسي خلال الأسابيع القليلة اللاحقة بتزيين شـقتنا الصغيرة. فعلى الرغم من أننـي كنت محبوسـة في الداخل معظـم الوقت إلا أننـي أردت أن أبدو مبتهجة قـدر الإمكان، وضـعت غطـاء مائدة مزخرفًا بالزهور وذا حواشـي من أشـرطة الزينة علـى طاولة المطبخ، وعلقت السـتائر، ووضعت صـور بط صـغيرة على الحائط، وعلقت قطعة قماش مربعة مكتوبًا عليها كلمة (الله).

وفي غضـون أشـهر قليلة أصـبحت حاملًا مرة أخرى، لم أكن مهتمة بممارسـة الجنس مع حمزة، لكن رضـخت لضـغط العادات والتقاليد. فقد كان يتوقع أن أنجب أطفالًا، فأنجبت أطفـالًا، فـي الحقيقة لقد رغبت دائمًا في أن أصـبح أمًّا، لكني كنت أتخيل هذه اللحظة شـيئًا مختلفًا تمامًا في طفولتي، فلم أتوقع إنجاب ذرية من شخص لا أحبه، وتساءلت: أيّ من سمات حمزة سوف يرث هذا الطفل؟ ربما أستطيع إزالة أي شيء مكروه في أثناء تربيتي له، لكن على الرغم من هواجسي كنت متأكدة من أنني سوف أحب طفلي.

عندما أصـبح بطني يكبر سـمح لي حمزة بالخروج قليلًا، ففي إحدى الأمسـيات أخذني إلـى منزل زميل له يدعى (أبو شـكري) وزوجته (روز). كانـت روز من بورتوريكو، لكنها كانت تتكلـم الإنجليزيـة والقليل مـن العربية. ثم غادر الرجـال وحدهم، وتركوني مـع روز. اهتمت صديقتي الجديدة بي كثيرًا، وحاولت أن تجعلني أشعر بأني شخص مميز.

«فدوى، دعيني أزيّنك!».

عرفت أن حمزة لن يعجبه الأمر إذا رآني واضعة المكياج.

« لا أعتقد أن تلك فكرة جيدة».

«هيا! سيكون الأمر ممتعًا. أنت لا تضعين مكياجًا نهائيًّا، انتظري، وسترين كم ستصبحين أجمل!».

وبعد محاولات كثيرة لإقناعي استسلمت، وسمحت لها بأن تضع على وجهي طبقة سميكة من ظل العينين الأزرق وحمرة زهرية وأحمر الخدين. وعندما انتهت التقطت صورة لي كنت فيها مرتبكة قليلًا وجدية، وكنت آمل أن يمضي حمزة وقتًا أطول يتحدث مع أبي شكري.

«شكرًا جزيلًا لك، لكن أرجوك ألا تري الصورة لحمزة، فهو لا يحب أن يرى المكياج على وجهي» قلت لها ذلك، بينما نظفت وجهي بسرعة بفوطة مبلولة بماء دافئ.

جاء حمزة إلى الغرفة، وأخبرني بأنه حان وقت الذهاب، لكنه لم يلحظ أن وجنتي وجفني كانا محمرين من الفرك، لذلك أفلتّ هذه المرة، لكن بعد بضعة أيام دخل حمزة الشقة، وأغلق الباب خلفه، مشى نحوي ممسكًا في يده صورة، ثم رماها بأصبعيه، وأرسلها في الهواء نحوي. وقفت بصمت أشاهد الصورة تقع على الأرض على وجهها مع الأسف، لكني عرفت ما فيها.

«ما هذا يا فدوى؟ أنت تعرفين أني لا أحب المكياج. هل تعتقدين أن تسخري مني هكذا أمام أصدقائنا؟ سوف أريك أن عليك أن تحترميني، لذلك لا يسمح لك برؤية روز مرة أخرى».

ظللت صامتة، فقد عرفت أن هذه الصداقة الجديدة لن تستمر طويلًا. كان حمزة متسلطًا كثيرًا، وكان يخاف من أن أنشئ علاقات حميمة مع أي واحدة من النساء، جاء أصدقاؤنا إلى شقتنا، وكان عليّ أن أخبرهم بأنني لن أستطيع زيارتهم بعد الآن.

لم يكن لدي الوقت الكافي لأفكر في هذه الخسارة؛ لأنني كنت أستعد لقدوم مولودي الجديد. ففي ٣١ تموز ١٩٨٨م ولد طفلي الأول (يوسف). جلب حمزة كومة من الحفاظات القماشية إلى الشقة، وأعطاني إياها، قائلًا بفخر: إنه لا يقبل أن يرتدي ابنه حفاظات؛ لأنها غير صحية وغالية.

«وأنت أيضًا يا فدوى، في المنزل طوال اليوم لا تفعلين شيئًا؛ لذلك لا مشكلة لديك في غسلها».

جـرت العادة أن تبقى الأم مع ابنتها لتسـاعدها على الاعتنـاء بطفلها الجديد، لكن بدل ذلك قرر حمزة أن يحضـر والده بالطائرة؛ لأن يوسـف هو حفيده الأول. فبدل أن أحصل على مساعدة كان لدي طفل وثلاثة رجال لأعتني بهم.

بل أصـبحوا طفلًا وأربعة رجال. فبعد وقت قصـير من انتقال (حماي) للعيش معنا قرر رمـزي وعزمـي أن يبقيا معنا طوال مـدة وجود والدهم عندي في البيت أيضًـا، وإضـافة إلى سـريري أنا وحمزة كان لدينا سريران مفردان في الصالة، وأيضًا الأريكة في غرفة المعيشة. وكنت كل ليلة بعد أن أضـع يوسـف في فراشـه لينام أستلقي على سـريري، وأضع وسادة على رأسـي محاولة أن أكتم صـوت شـخير الرجال الأربعة، وعندما لا ينجح ذلك كنت أجلس على أرضية الحمام، وأغلق الباب؛ لأهرب من هذا الإزعاج.

وخلال النهار بين أوقات إرضـاع يوسـف واللعب معه كنت أطبع أوراقًا لرمزي لحصصه الجامعيـة. فلـم يكن لديه أو لدى عزمي آلة كاتبة في المنزل، أما أنا فكانت لدي واحدة، كانت أعمـدة الطباعـة تعلق أحيانًا ما يجعلني أتوقف عن الطباعة، وأسـحبها إلى أسـفل، لقد كنت خجولة كثيرًا من أن أخبر رمزي بأن ليس لدي وقت لأسـاعده أو أخترع أي حجة أخرى، لذلك ابتسمت له، وأخبرته بأنه يسرني أن أساعده.

عندما بلغ عمر يوسف ستة أشهر نقل حمزة ليعمل مدة شهر في مستشفى في ولاية كانا تيكيـت- نيويورك. وعندما رجعنا إلى سـتيتن آيلند كنت حاملًا بطفلي الثاني، على الرغم من أننا كنا نستخدم طرقًا لتحديد النسل. لكن اتهمني حمزة بأنني تعمدت أن أحمل بهذا الطفل.

«أنا لا أصدق أنك أخذتِ حبوب منع الحمل! أعتقد أنك فوّتِ بعض الأيام!

«أنا حامل الآن يا حمزة! ماذا تريدني أن أفعل؟ أجهض الطفل؟».

«لا، فأنت تعرف أن الإجهاض حرام في الإسلام، وليس لدينا خيار آخر إلا أن نرزق بهذا الطفل».

فـي ربيع عام ١٩٨٩م انتقل أخي البكر للعيش في سـتيتن آيلاند. اسـمه (هشـام) لكنا أطلقنا عليه اسـم (سـام). وبينما كان سـام يبحث عن مكان يعيش فيه أقنع حمزة أخاه بأن يسـمح لسام بالبقاء معه، لكنه لم يسـمح له بأن يبقى معنا خوفًا من أن يأخذني أخي للتبضع، أو يعلمني استخدام المواصلات العامة. وهكذا بقي سام مع أخي حمزة مدة شهرين، لكن بعد

ذلـك أخبرنـي حمزة فجأة بأن على سـام الانتقال للعيش في مكان آخر، ولم يكن حتى يسـمح لسام بأن يزورني.

في السـابع من أيار احتفلنـا بعيد الفطر الذي دائمًا ما نقيم فيـه مأدبة كبيرة، ونتبادل الهدايا. اتصل سام، وسأل إن كان يستطيع الحضور ليعطيني هدية، كان حمزة سيصل المنزل متأخرًا، لذلك أخبرت سـام بأن يحضـر عند الساعة ٤:٠٠ مساءً؛ لأني لم أرغب في أن أخبره بـأن حمزة لا يريده أن يزورنا. لكن وصـل سـام متأخـرًا قليلًا، ورجع حمـزة للمنزل أبكر من المعتاد، والتقى الاثنان في الممر. غضـب حمزة كثيرًا، وأمر أخي بأن يغادر، ولم يستطع سام أن يتحدث إلي إلا وهو واقف في الممر وأنا عند المدخل، جعلني هذا أبكي لأني شعرت بالذل.

«لا تبكي يا أختي الصـغيرة، لقد أحضرت ليوسف هذه الهدية، ولك مئة دولار اشتري ما يحلو لك، عيد سعيد!»وعانقني أخي بسرعة، ثم رحل.

عندما شاهدت سام يرحل شعرت بغضب شديد من حمزة، استدرت راجعة للشقة، وكان حمزة واقفًا ينظر إلي كأن لم يحدث شيء.

«أريد أن أعود للأردن يا حمزة، لن أبقى هنا معك بعد الآن».

«لا تكوني سخيفة يا فدوى، ما خطبك؟ هل أثرت فيك هرمونات الحمل؟».

«أريد أن أرجع إلى وطني».

لم يعرف حمزة ماذا يفعل بي، لذلك اتصـل بأبيه، ورتب زيارة أخرى له. وعندما وصـل (حماي) إلى شقتنا عانقني، ووضع يديه على كتفي، قائلًا:

«لا تقلقي يا فدوى، أعرف أنك مشـتاقة إلى عائلتك، وهم لم يروا يوسـف الصغير بعد. سوف أسافر للأردن معك، لكن عليك أن تخبري والديك بأنك جئت لإمضاء عطلة فقط».

بعد أسـبوع من ذلك سـافرت أنا ويوسـف للأردن مع والد حمزة. بقيت في منزلهم، ثم زرت والدي في اليوم المقبل. وفي الواحد والثلاثين من تموز احتفلنا بعيد ميلاد يوسف الأول، كانت أمي وسـميرة وأولادهـا وأخوات حمزة ووالداه موجودين. أحضـرنا كعكـة كبيرة مزينة بحلوى برتقالية صـغيرة مغطاة بالسـكر، ثم وضـعت أنا شـمعة واحدة كبيرة في وسط الكعكة وشـمعات عدة صـغيرة على الطرف، كان ذلك من اللحظات السـعيدة القليلة التي حظيت بها

في تلك المدة من حياتي، فقد كنت أتحدث مع عائلتي، وأستمع للصغار يمرحون، ويضحكون بحرية.

بعد بضعة أيام توقف الطفل الذي في بطني عن الحركة، فأخذني (حماي) إلى المستشفى، ووضعوني في غرفة وحدي لم يجروا أي فحوص، بل شبكوا قسطرة وريدية في يدي، وانتظروا ليروا إن كان الطفل سيتحرك ثانية، ولم يسمح لي بتناول الطعام إلا في أوقات طعام معينة، طلبت من إحدى الممرضات أن أتناول بعض االبسكويت، لكنها أخبرتني بوضوح بأنه ليس وقت تناول الطعام، وأن علي أن أنتظر على الرغم من أنني حامل. حضرت سميرة وأمي ليزوراني، وأخبرتهما بأنني جائعة، ثم ذهبت سميرة إلى مطعم خارج المستشفى، وجلبت حساء مع رز وصدر دجاج، إضافة إلى كعك محلى ومكسرات وبرتقال أكلتها كأني لم أتناول الطعام منذ عام. بقيت في المستشفى أربعة أيام، ثم بدأ طفلي بالتحرك ثانية.

في نهاية شهر آب رجعت أنا ويوسف إلى الولايات المتحدة، لقد أردت بشدة أن أخبر والدي وأخواتي بمعاناتي من زواجي بحمزة وشعوري بأنه يقتلني ببطء، وخوفي المتزايد من ألا أشعر بالسعادة ثانية. لكني كنت أعرف الإجابة، فوالداي كانا سيبتسمان، ويخبراني بأن أصبر، وأقبل الوضع، فحمزة يمكن أن يتغير. إضافة إلى ذلك، أنا الآن أم، ولا يمكنني أن أفكر في نفسي فقط؛ لذلك لم أقل شيئًا، ورجعت إلى سجني.

بعد ثلاثة أيام فقط من رجوعي لبيتي كان علينا الانتقال؛ لأن حمزة لم يعد طالبًا الآن. انتقلنا إلى منزل في سايبرس-بيويورك كان ذلك المنزل كبيرًا، ويحتوي على ثلاث غرف نوم وغرفة معيشة ومطبخ وحمام وتسوية واسعة فيها غرفة غسيل وحمام آخر، وكان للمنزل فناء خلفي كبير ليلعب فيه الأطفال، عندما يكبرون. خلال انتقالنا كان علي أن أحزم ملابسي والصحون وألعاب يوسف، إضافة إلى المهام المعتادة من تنظيف وطبخ واعتناء بيوسف، لكن بعد بضعة أسابيع من انتقالنا جاءني المخاض، وعندما أدركنا أن الطفل على وشك القدوم اتصل حمزة بأخويه ليعتنيا بيوسف. وفي السابع عشر من أيلول ولدت ابني الثاني (أنس) في المستشفى نفسه في ستيتن آيلاند وعند الطبيب نفسه الذي ولّد يوسف.

عندما بلغ أنس شهره الأول جاءت حماتي لزيارتنا، وفي غضون ذلك كان علي أن أغسل ملابسها، وأطبخ لها، إضافة إلى تنظيف المنزل والاعتناء بولديّ ذوي العام الواحد والشهر

الواحد. أصبحت حماتي تغار مني كثيرًا، وكانت تضع عينها على كل شيء أمتلكه في المنزل، في أحد الأيام رأت بطانية لي على سريري، وطلبت من حمزة أن تأخذها، لكنه قال لها: إنه سيشتري لها واحدة جديدة مثلها، إلا أنها أرادت بطانيتي بالذات، وليس واحدة جديدة، وطلبت منه أن يعطيها إياها، وفي عطلة نهاية الأسبوع أخذنا حمزة إلى مركز التسوق على أمل أن يقنع أمه بأن لا فرق بين بطانية جديدة والبطانية التي على سريري. كان الجو باردًا في الخارج؛ لذلك ارتديت معطفًا ثقيلًا، وقررت حماتي بسرعة أنها تريده.

«دعيني أجرب معطفك يا فدوى».

«لكن معطفي صغير كثيرًا عليك يا حماتي، وليس بمقاس جسمك».

في الحقيقة كان المعطف أصغر أربع مرات من مقاسها، لكنها أصرت أن تجربه، وأقحمت ذراعيها في كمي المعطف. بعد ذلك تخلت عن المعطف وعن البطانية أيضًا.

كان لدي آلة كاتبة قديمة كنت أستخدمها لأرفه عن نفسي، وكان لدي دفتر يوميات مكتوب بخط اليد بالعربية، وكنت أطبع بالإنجليزية أردت أن أتأكد من حفاظي على مهارات الطباعة واللغة العربية التي عملت جاهدة لأطورها. وساعدني ذلك أيضًا على ممارسة اللغة الإنجليزية، فعلى الرغم من عدم قدرتي على الاحتكاك مع الناس كثيرًا إلا أني اعتقدت أنه من المفيد أن أتعلم المزيد عن اللغة الإنجليزية. رأتني حماتي في ظهر أحد الأيام أطبع، بينما كان يوسف وأنس نائمين، وقررت أن تأخذ الآلة الكاتبة معها للأردن؛ لتعطيها لابنتها إرما. ولقد كنت خائفة من أن تأخذها في أثناء تفقدي للولدين؛ لذلك، وبينما كانت غافلة عني كسرت عمودين من أعمدة الطباعة؛ حتى لا تعمل الآلة الكاتبة. ثم أخبرتها بأن الآلة قديمة، ولا تعمل، لكنها لم تصدقني، فأخذتها إلى شقة ولديها، وطلبت منهما معاينتها. أكدا لها أنها معطلة، لكنها تركتها عندهما، عندما رجعت للأردن.لم أسترجع الآلة الكاتبة أبدًا، لكني لم أهتم بذلك ما دامت أم حمزة لم تحصل عليها أيضًا. لكن لم تكن جميع ممتلكاتي بأمان، فبعد أن رجعت حماتي للأردن، وبينما كنت أغسل الثياب لاحظت أن بطانيتي مفقودة، لم أعثر عليها إلا عندما زرنا والديّ حمزة بعد ثلاث سنين. فقد قامت حماتي (التي كانت تدعي مرارًا وتكرارًا أنها غير ماهرة في استخدام الإبرة والخيط) بخياطة قماش جديد فوق بطانيتي؛ لتغطي آثار فعلتها، لكني سحبت خيطًا مفكوكًا، وأزلت قطعة صغيرة من المادة التي تغطيها، وكشفت عن بطانيتي المفقودة.

في أواخر عام ١٩٨٩م كان حمزة يعمل في مركز إنترفيث الطبي في بروكلين. وكان يستيقظ مبكرًا، ويغادر المنزل عند الساعة ٧:٠٠ صباحًا، ولا يعود إلا عند الساعة ١١:٣٠ مساءً. وعلى الرغم من كل ذلك الاضطراب في حياتنا الزوجية إلا أنني حاولت أن أحسن علاقتنا، فكنت أعد الطعام له، وأنتظره حتى يرجع للمنزل، لكنه غالبًا ما كان يحبطني.

«تناولي ذلك الطعام يا فدوى، إن أردت، فأنا ذاهب للنوم».

أحببت كوني أمًّا لطفلين، لكن حتى الأمومة لم تساعدني على الهرب من ذلك الشعور بفقدان الحس الناجم عن بقائي طوال اليوم في المنزل كالسجينة. لم يكن أمامي أي مخرج، ففي حال تركت حمزة لن أستطيع إعالة نفسي، ولم أكن لأتحمل العيش بعيدة عن طفليّ. جعلني ذلك أفكر في طرق لأنتحر، عندئذ سوف يعتني حمزة بالطفلين، فعلى الرغم من جميع مساوئه إلا أنه يحب ولديه، ولن يؤذيهما أبدًا، وربما عندما يكبران سوف يفهمان لماذا فعلت ذلك، في ذلك الوقت كان عمر يوسف سنة وثلاثة أشهر، وأنس ثلاثة أشهر، لذلك لن يطول الأمر حتى ينسياني تمامًا، وهكذا أقنعت نفسي بأنهما سيكونان بخير من دوني.

وضعت الولدين في مهديهما، وغنيت لهما برقّة ليناما، ثم رتبت غرفة المعيشة، وأعددت الطعام آخر مرة، وتركت كثيرًا من أوعية الطعام في الثلاجة. بعد ذلك جلست على مائدة المطبخ، وكتبت رسالة لكل من ولدي، نصفها بالإنجليزية ونصفها الآخر بالعربية طويت الورقتين مرتين، ودسستهما تحت وسادتيهما وكلي حرص ألا أوقظهما، أردتهما أن يعرفا كم كنت أشعر بالوحدة وأنا محتجزة في المنزل وغير قادرة على مصادقة أحد أو الخروج من المحيط الذي كان يتصوره حمزة.

تخيلت، وأنا في تلك الحالة من الجنون المؤقت أن الرسالتين ستبقيان بحوزة ولدي، عندما يكبران كفاية ليفهماها، وربما لن يرى حمزة الرسالتين، وسيطوي مفارش مهديهما، والرسالتان مخبأتان في الداخل، ثم سيحتفظ بهذه المفارش في صندوق يحتوي على ملابس الطفلين وألعابهما، وبعد سنين عدة سوف يفتح يوسف وأنس صناديقهما ليعطيا ما فيهما لأطفالهما، عندئذ سيجدان رسالتي، ويعرفان مني مباشرة لماذا فعلت ما فعلت، وسيكتشفان أول مرة أن ما أخبرهما أبوهما ووالداه عني طوال حياتهما مجرد كذب.

ذلك اليوم كان يوسف وأنس ينامان نومًا عميقًا، وعرفت أنهما لن يستيقظا إلا بعد حين. فنزلت بصمت إلى التسوية، وبحثت عن مواد كيميائية يمكن أن تقتلني إن شربتها، ثم سكبت خليطًا من مبيض الأقمشة ومنظفات الحمام وسم الصراصير، ورفعت الكأس لشفتي لأشربه، ثم أملت رأسي للخلف، وأخذت نفسًا عميقًا، وعيناي مغلقتان.

بدأ أنس بالصراخ، لِمَ استيقظ مبكرًا؟ أمسكت الكأس برهة على أمل أن يعود للنوم، لكنه استمر في البكاء، لم أستطع أن أترك طفلي يبكي وحيدًا في مهده، فلن يعود حمزة للمنزل إلا بعد ساعات، ولن يفهم أنس لماذا لم أحضر لتفقده. لذلك وضعت الكأس، وذهبت إلى أعلى، فكرت في أول الأمر أنني سأرجع أنس لينام، وسيكون لدي الوقت الكافي لأقتل نفسي قبل أن يرجع حمزة؛ لذلك هززت سرير أنس، وغنيت له حتى أغلق جفنيه النعسانين، لكن في كل مرة يسكت فيها يبدأ بالبكاء من جديد؛ لذلك أخذت الرسالتين من تحت وسادتي الولدين، وأعددت العشاء لحمزة، وأنا منكسرة الفؤاد.

في اليوم المقبل وضعت الولدين في فراشهما ليأخذا قيلولة، ووضعت الرسالتين مرة أخرى تحت وسادتيهما، وعندما ناما ذهبت إلى المطبخ، وأخرجت سكينًا من الدرج، ثم ذهبت إلى التسوية، ونزعت قميصي محاولة أن أغرس السكين في صدري، لكن انثنى نصل السكين، وارتد بعيدًا عني، فالتقطته، وشرعت أحاول مرة أخرى.

في تلك اللحظة سمعت وقع قدمي يوسف متجهًا نحو التسوية ينزل السلم درجة درجة، ويداه ممسكتان بالدرابزين.

«يوسف، لماذا غادرت الفراش؟ أنت دائمًا تنام جيدًا خلال قيلولتك!».

«ماما، ماما. بو، بو».

«هل تريد كأسًا من الماء؟».

أومأ يوسف برأسه، وعانقني لافًّا ذراعيه حول رقبتي، حملته وصعدت به إلى أعلى، ووضعت السكين في مكانه والدموع تنهمر من عيني، ثم مزقت الرسالتين، فولداي يحتاجان إلي، ولا أستطيع تركهما بغض النظر عن الألم الذي أعانيه بسبب والدهما، وهكذا رجعت إلى حياتي الروتينية والمؤلمة.

بعد ذلك بمدة قصيرة قرر حمزة أن عمله في مركز إنترفيث الطبي لا يعجبه؛ لأن المسافة إلى هناك بعيدة، ولا يجني ذلك القدر من المال الذي يستحقه؛ لذلك بدأ يبحث عن عمل جديد دون أن يهتم بموقعه، أو بقربه من أحياء سكنية جيدة، ما دام الراتب أفضل. لكنه لم يعرف كيف يكتب السيرة الذاتية؛ لذلك وافقت أن أكتب واحدة له بخط يدي، ثم يطلب من أحد زملائه في العمل أن يطبعها له؛ لأن آلتنا الكاتبة معطلة الآن، وهو لا يجيد الطباعة، وفي مساء اليوم المقبل عاد للمنزل يحمل بفخر خمسين نسخة عن سيرته الذاتية والكتاب التوضيحي، إضافة إلى خمسين ظرف بريد عليها عناوين مستشفيات وعيادات في جميع أنحاء الولايات المتحدة. أمضينا بقية الأمسية نغلق الظروف بإحكام، ونضع طوابع البريد عليها؛ ليتمكن حمزة من إرسال طلبات التوظيف في الصباح الباكر.

وبعد مدة قصيرة من إرسال هذه الطلبات تسلّم حمزة عرضًا ليعمل في عيادة صغيرة في أونيدا، وهي بلدة صغيرة في المنطقة الشمالية لولاية نيويورك. وكان على حمزة أن يعمل مع طبيب أمريكي اسمه (ستيف) وطبيب عراقي اسمه (رافاييل).

عندما انتقلنا إلى بلدة أونيدا عشنا في الطابق الثاني من عمارة سكنية. وبينما كان حمزة يعمل في العيادة كان علي البقاء في الشقة، لكن كان علينا استخدام غرفة غسيل مشتركة في الطابق الأول؛ لذلك سُمح لي بالنزول مع الأسف لغسل الثياب.

كنت أنزل لغرفة الغسيل كل يوم، فقد كان هناك الكثير من الملابس المتسخة التي تحتاج إلى غسيل؛ لأن لدي ولدين صغيرين، إضافة إلى حمزة وملابسي بطبيعة الحال. لكن كان هذا عذرًا لأخرج بضع دقائق من الشقة، ثم ما لبثت أن لاحظت أن أحد أبواب الشقة في الطابق الأول مفتوح دائمًا. وبعد أسابيع عدة من ذهابي كل يوم إلى غرفة الغسيل خرجت سيدة عجوز من الشقة المفتوحة، وبدأت بترديد الحديث معي، ولم تمضِ مدة طويلة حتى أخبرتني تلك السيدة بكل شيء عن حياتها، ولماذا تترك بابها مفتوحًا ليلًا ونهارًا.

«أنا أعيش وحدي الآن، وأخاف أن يحدث شيء لي، فليس لي أحد يطمئن علي، وأنا لا أذهب إلى أي مكان، ولن يلاحظ أحد إن أصابني مكروه، ولم أستطع النهوض؛ لذلك أترك الباب مفتوحًا، ففي حال سقطت على الأرض سوف يسمعني أحدهم، عندما يمرّ بالباب في طريقه إلى غرفة الغسيل، أو إلى شقته، ويساعدني».

شعرت بالحزن نحو هذه السيدة التي لم يكن لديها أحد ليطمئن عليها. وشعرت بأني سجينة؛ لأني لا أستطيع مغادرة شقتي، لكن على الأقل إذا حدث لي شيء سوف يلاحظ حمزة ذلك، ويأخذني للمستشفى، وبعد أن عدت إلى شقتي أعددت بعض الأرز والدجاج، ووضعته في وعاء صغير؛ لآخذه إلى صديقتي الجديدة. طرقت على بابها على الرغم من أنه كان مفتوحًا؛ لأنه من الخطأ الدخول دون استئذان، لم تسمعني في أول الأمر، لكنها بدت سعيدة عندما رأتني.

«تفضلي، واجلسي!».

«فقط بضع دقائق، فطفلاي نائمان في الأعلى».

بعد ذلك كنت آخذ الطعام إليها من حين لآخر، لكني لم أعدّ شيئًا يحتاج إلى مقادير كثيرة؛ حتى لا يلاحظ حمزة فقدان شيء من المطبخ. وفي مساء أحد الأيام غادرت الشقة مع حمزة والطفلين، فرأتنا صديقتي الجديدة، وخرجت لتسلم علينا.

«آه يا فدوى، إذن هذه هي عائلتك! زوجتك طيبة جدًّا يا سيدي، فهي دائمًا تمر علي لتراني، وتحضر لي شيئًا آكله!».

ابتسم حمزة قليلًا، فهذه هي طريقته البائسة لإظهار الغضب، لكني عرفت أنه لن يسمح لي بزيارة صديقتي ثانية، وبالفعل عندما عدنا إلى الشقة كان غاضبًا؛ لأني خبأت هذا الأمر عنه.

«هل هناك أحد آخر يزورك يا فدوى؟».

«لا، كل ما في الأمر هو أنني شعرت بالأسى نحوها، فهي سيدة عجوز، وليس لديها أحد تتحدث معه».

«لكنك تعرفين أنني لا أحب أن تتكلمي مع الجيران، وأنا غائب!».

«حسنًا يا حمزة، لن أزورها ثانية».

بدأت أشعر بالملل القاتل؛ لذلك سألت حمزة إن كنت أستطيع أخذ دروس في اللغة الإنجليزية؟، فعلى الرغم من أنني كنت أتعلم الإنجليزية منذ المدرسة الابتدائية إلا أنني كنت في حاجة إلى ممارسة المحادثة مع الناس؛ حتى أتحدث بطلاقة. وافق حمزة، وسأل

إحدى الممرضات في العيادة، التي أخبرته عن كنيسة محلية تقدم برنامجًا تطوعيًّا. وهكذا كانت تأتي إلى شقتنا سيدة متقاعدة عن العمل لتعطيني دروسًا مرة في الأسبوع. لم تكن تمتلك سيارة؛ لذلك كان حمزة يحضرها لشقتنا، ثم يرجعها إلى منزلها، وكان حمزة يعتني بالطفلين خلال دروسي التي كانت مدتها ساعة تقريبًا.

سألتني المتطوعة أسئلة عدة؛ لتساعدني على تحسين مهاراتي الشفهية. فكانت تدون ملاحظات عن هواياتي، مثل الخياطة والطبخ والأزياء. وفي الأسبوع المقبل أحضرت كتاب طبخ؛ حتى أتعلم أسماء الأطعمة والوصفات باللغة الإنجليزية، وفي أسبوع آخر أحضرت بعض رسوم التطريز. ثم أخبرتني عن صديقة لها تمتلك صالونًا.

«إن كنت ترغبين أستطيع أن أحضرها معي في المرة المقبلة؛ لتعلمك أسماء المنتجات وتصفيفات الشعر».

عرفت أن ذلك لن يسعد حمزة، لكني شعرت بالخجل من أن أخبرها بأي شيء عن وضعي، لذلك شكرتها فحسب. فهما ستأتيان يوم الأربعاء في سيارة صديقتهما، وسيكون حمزة في العمل، ولن يعرف أنهما هنا، وهكذا جلسنا ثلاثتنا حول مائدة المطبخ، واستمتعت بالحديث، وشعرت بالسعادة، لكن كانت هذه السعادة منغصة بالهواجس، فكلما شعرت بالسعادة كنت أعرف أن شيئًا سيئًا سيعكر سعادتي.

أعددت شايًا مع نعناع طازج كنت أزرعه على الشرفة، وقامت السيدتان بتعليمي أسماء منتجات المكياج المختلفة.

«إن بشرتك رائعة جدًّا يا فدوى!».

«شكرًا».

«ما رأيك في أن نضع المكياج عليك؟!».

أجبت مترددة: «لست متأكدة».

«آه، لكنك تبدين جميلة جدًّا!».

لن يرجع حمزة للمنزل قبل الظهيرة، لذلك وافقت، كنت أنظر إلى الساعة طوال الوقت، لم يتبقَّ لدينا إلا ساعة، فعندما انتهينا حاولت أن أركض إلى الحمام لأغسل وجهي.

«لا، اتركيه. سيعجب ذلك زوجك».

وعند الساعة ١١:١٠ صباحًا سمعت المفتاح يدور في قفل الباب. رحبت السيدتان بحرارة بحمزة، الذي كان مستغربًا من وجودهما.

«انظر إلى فدوى! إنها تبدو جميلة جدًّا!».

لم يقل حمزة شيئًا، ولا حتى بعد أن ذهبتا. سألته إن كان يريد تناول الغداء، وأنا أرى الانزعاج يزداد في ملامح وجهه؟

«لا، لست جوعان».

استخدم المرحاض، ورجع إلى عمله، وفي المساء أخبرني بأنني لن آخذ دروسًا في اللغة الإنجليزية بعد الآن.

«لكن ماذا سأقول لها يا حمزة؟ فلا تفسير لدي!».

«أخبريها بأننا سننتقل إلى مكان آخر، وليس لديك وقت».

كانت تلك حجة معقولة؛ لأننا كنا نبني منزلًا في شيتيناجو، وهي بلدة مجاورة لبلدة أونيدا. لم نكن سننتقل إلى هناك إلا بعد أشهر، لكن لن تعرف صديقتاي هذا أبدًا. جعلني ذلك أشعر بالفراغ، فقد كنت أنتظر كل أسبوع حتى يأتي يوم الجمعة، وأتحدث مدة ساعة مع شخص ما.

مر الوقت بسرعة، وانتقلنا إلى منزلنا الجديد في شيتيناجو. كان المنزل كبيرًا؛ لأن حمزة كان يخطط أن ينتقل والداه للعيش معنا في أثناء مرحلة كبرهما. كنت أكره استغلال حمزة هذا المنزل حجة ليبعد عني كثيرًا من الأشخاص الذين كانوا طيبين معي، لكني أصبحت أحب ذلك المنزل. فقد كان دافئًا وجميلًا، ويحتوي على كثير من غرف النوم وغرفة معيشة فيها مستوقد وغرفة عائلة منفصلة. وكان للمطبخ نافذة كبيرة وباب يفضي إلى فناء ضخم، وكان للأطفال غرفة لعب كبيرة، أما الفناء الخلفي فكان يحتوي على بستان وحديقة فيهما أشجار تفاح وإجاص وطماطم وأعشاب.

بينما كنا نحزم أمتعتنا جاءني زوار غير متوقعين. فعند الساعة ١١:٣٠ صباحًا رنّ جرس الباب، ذهبت لأنظر من خلال ثقب الباب، فرأيت امرأة تحمل طبقًا، ففتحت الباب.

«مرحبًا، أنا جارتك جوليا. أنا أعيش في ذلك المنزل».

ثم أشارت بأصبعها إلى منزل يبعد نصف صف من البيوت.

«اسمي فدوى».

تصافحنا.

«تشرفت بمقابلتك. أحضرت لك كعكة خبز الموز؛ لأرحب بكم في حيّنا. أسمع صوت أطفالك».

«نعم، لدي ولدان».

«وأنا لدي بنتان عمر الأولى ثلاث سنوات والثانية أربع سنوات. نحن نرحب بطفليك في أي وقت إن أرادا المجيء للعب مع طفلتينا».

دعوتها لتناول الشاي، لكنها كانت مضطرة إلى المغادرة.

بعد ٣٠ دقيقة رنّ جرس الباب ثانية. كانت جارة أخرى على الباب، امرأة أمريكية مسيحية متزوجة رجلًا يهوديًّا، وعندما عرفت أنني من فلسطين هتفت، قائلة: «آه، لقد ذهبنا مرة إلى إسرائيل، إنها مكان جميل! لقد قابلت بعض العرب عندما كنا في القدس، بدوا أشخاصًا طيبين، أتمنى أن يجدوا طريقة لإحلال السلام هناك».

«شكرًا لك. هل تحبين أن تدخلي لاحتساء فنجان قهوة؟».

رجعت هذه السيدة بعد قليل محضرة كعكة، وعرضت علي أن يأتي أولادي للعب مع أولادها.

رنّ جرس الباب للمرة الثالثة، وكانت جارتي المصرية واقفة على عتبة الباب مع ابنتها ذات الخمسة أعوام تحمل كثيرًا من أطباق الطعام، قابل زوجها حمزة في المسجد من قبل، لذلك كانا يعرفان أننا آتيان اليوم إلى منزلنا الجديد، أحضرت تلك السيدة طعامًا يكفي لإطعام عائلتي مدة ثلاثة أيام.

«السلام عليكم: اسمي سهير، وهذه ابنتي سالي».

رحبت بها، ثم رافقتها للمطبخ.

«أعـرف أنك مشـغولة بالارتحال، وليس لديك الوقت لتطبخـي، لذلك أعددت لك بعض الطعام المصـري. آمل أن يعجبك. وإذا احتجت إلى المسـاعدة أخبريني. تحب (سـالي) أن تلعب مع أطفالك هذا هو رقمي، اتصلي بي».

«ماذا تحبين أن تشربي؟».

«آه، لا تتعبي نفسك. في المرة القادمة عندما تستقرون سوف نشرب الشاي مع بعضنا».

رافقتها إلى الباب.

بعـد أن اسـتقر بنا المقام في بيتنا الجديد آلت الأمور للأسـوأ. ففي صـباح أحد الأيام في شـهر كانون الثاني عام ١٩٩٢م أصبحت فجأة مريضة جدًّا. لقد كنت على ما يرام، عندما اسـتيقظت متوعكة قليلًا، لكن لست مريضـة بمعنى الكلمة. ذهبت للاستحمام، وانتظرت مع يوسـف حتى جاءت حافلة المدرسة، ثم أُحضِـر بعد الظهر باكرًا. وبينما كنت ألعب مع يوسف وأنس نحو السـاعة ٤:٠٠ مساءً شعرت فجأة بالبرد الشـديد، لذلك أغلقت نافذة المطبخ، إذ كانت تدخل هواء باردًا.

عندمـا عاد حمزة من المستشـفى قال دون مبالاة: إنني أعانـي الحمى، وأعطاني حبتي دواء، لكن فور ابتلاعي لهما تقيأت، وازدادت الحمى، استلقيت في سريري، وأنا أتوجع من كل حركة. وفي غضون ثلاثة أيام لم أستطع المشي، وانتفخت قدماي، لذلك كنت أزحف على يديّ وركبتيّ للمطبخ؛ لأعد الفطور ليوسف وأنس.

مرت عشـرة أيام قبل أن يوافق حمزة أخيرًا على أن يأخذني للمستشفى في بلدة أونيدا، وهنـاك كان علـي أن أتكـئ علـى ذراعه؛ لأمشـي إلى غرفة الطـوارئ. كان الأطبـاء الآخرون مدهوشين لرؤية حمزة.

«ماذا تفعل هنا؟».

ثم رأوني، وأنا لا أسـتطيع الوقوف وظهري منحنٍ وغير قادرة على الحركة. أحضر اثنان منهم نقالة، وأخذاني إلى الغرفة، وهناك قاموا بمعاينة ضـغط دمي ونبضـات قلبي، وسـحبوا دمًا مني؛ ليجروا فحوصًا عليه، وفي اليوم المقبل لم أستطع الكلام أو إغلاق عينيّ، وكان على الممرضـة أن تدلك ظهـري؛ لتمنعه من الالتواء، ثم أعطتني مسـكنات لتخفض حرارتي، لكن دون جدوى. غسلت الممرضة شعري، ومسّدت رأسي محاولة أن تطمئنني.

«سيكون كل شيء على ما يرام. لا تقلقي سوف تغادرين المستشفى، وترين أطفالك ثانية».

حاول الأطباء مدة خمسة أيام إقامتي في المستشفى أن يخفضوا حرارتي، ويكتشفوا ما علتي، لكن في اليوم السادس سمعت طبيبًا يخبر حمزة بأنهم لا يستطيعون فعل شيء، ونصح الأطباء حمزة بأن يتصل بعائلتي؛ ليزورونـي ويدعوا لي. كان ولداي في الثالثة والرابعة من العمر، ولم أرغب في أن يكبرا دون أم. كانت الدموع تنهمر من جفنيّ المفتوحين، فلاحظ الطبيب أنني أستمع، فتحول من الحديث باللغة الإنجليزية إلى الإسبانية، التي كان يتحدثها حمزة؛ لأنه عاش في كولومبيا منذ صغره.

بعد أن أنهى حمزة حديثه مع الطبيب رجع إلى الغرفة، وسألني إن كنت أرغب في رؤية ولديّ؟ حركت رأسي قليلًا لأشير إليه بالإيجاب، فأحضر يوسف وأنس إلى غرفتي، ركضا نحوي، وحاولا تسلق السرير بمساعدة أبيهما، ثم جلسا بقربي، وأخبراني عن تجربتهما في أثناء بقائهما مع أحد جيراننا.

قال لي يوسف متذمرًا: «أنا أحب خالتو حلوة يا أمي، لكنها لا تقرأ لنا قصصًا قبل النوم، متى سترجعين إلى المنزل؟».

ردد أنس، قائلًا: «نعم! نعم! نعم! متى سترجعين للمنزل؟».

بدأ أنس بهز السرير، حاولت ألا أبكي، لكني لم أستطع إيقاف دموعي، فصعد يوسف وأنس عليّ، ومسحا دموعي، ثم أخبرهما حمزة بأن وقت الرحيل قد حان.

«لكن ستأتي ماما معنا!».

«لا، يا بني، سوف تبقى ماما هنا».

بعد أن غادروا الغرفة علقت ممرضة جهازًا طنانًا على ملابسي، وأخبرتني بأنه عندما أريد شيئًا، فما علي إلا أن أحرك رأسي ليشتغل الجهاز، وعندما أصبحت وحيدة فكرت في يوم القيامة، وماذا سيحدث ليوسف وأنس بعد رحيلي، فبكيت وفكرت أيضًا في حياتي، محاولة أن أعدّ حسناتي على أمل أن تفوق سيئاتي عددًا. ثم بكيت، وبكيت حتى نمت.

عند نحو الساعة ٤:٠٠ صباحًا جاءت ممرضة لغرفتي لتعطيني المزيد من الدواء، وبينما كانت تضبط القسطرة الوريدية على يدي جلست، واختفت أعراض مرضي فجأة. غادرت الممرضة الغرفة لحظة، معتقدة أنها أتت إلى الغرفة الخطأ. ثم عانقت قرآني الذي أحتفظ به في حقيبتي، ووضعه حمزة تحت وسادتي في أثناء مرضي.

رجعت الممرضة مسرعة إلى الغرفة.

«سيدة حمدان! هل أنت السيدة زوجة الدكتور حمدان! أنت بخير!» في أمريكا ينادون المرأة باسم عائلة زوجها.

أسرع الطبيب إلى الغرفة يلهث، وسأل الممرضة عن ماهية الدواء الذي أعطتني إياه، ونجح في شفاء مرضي؟

«لم أفعل أي شيء غير اعتيادي، ولم أعطِها أي شيء أبدًا. كل ما فعلته هو أني أتيت إلى الغرفة، ورأيت فجأة أن الحمى اختفت».

بعد شهرين، وبينما أنا مع حمزة والأولاد نتبضع التقيت مصادفة ممرضة بدت مألوفة لي، لكني لم أميزها.

«أريد أن أخبرك يا سيدة حمدان، بأن الأطباء لا يزالون يدرسون ملفك الطبي، محاولين أن يفهموا ما حدث ذلك الصباح، فهم لا يعرفون ما سبب تلك الحمى التي أصابتك، ولا كيف اختفت».

بعد ذلك خفف حمزة قيوده قليلًا، وسمح لي بحضور اجتماع أسبوعي للنساء في المسجد، وشعرت بالارتياح لخروجي من المنزل، حتى لو يومًا واحدًا في عطلة نهاية الأسبوع.

وفي شهر أيار جاءت حماتي من الأردن إلى شيتيناجو؛ لتلتقي حمزة، ويسافرا إلى مكة المكرمة لتأدية مناسك الحج، وكان علي البقاء وحيدة في نيويورك لأعتني بابنيّ، بقي حمزة وحماتي هناك من نهاية شهر أيار حتى منتصف شهر حزيران، ثم عادا. وخلال الأسابيع القليلة من غيابهما شعرت بالحرية، فقد كنت أستطيع التحدث عبر الهاتف يوميًّا مع النساء، وأحيانًا يحضرن لزيارتي في البيت، وهؤلاء النساء هن اللواتي تعرفت إليهن في المسجد، وكن يسألنني إن كنت أحتاج إلى أي شيء؟، وفي غضون ذلك عقدت صداقة حميمة مع امرأة

اسـمها (جميلة) كان لديها طفل صـغير، وكنا نتحدث على الهاتف ساعات طويلة بعد أن يغفو أطفالنا في القيلولة.

وعندما حل العيد اتصـلت بي جميع النسـاء في المسجد يسـألن إن كان بالإمكان إقامة حفلة في منزلي؟ كانت هؤلاء النساء من الأردن وفلسطين والسعودية وسوريا والولايات المتحدة والكويت، وكنّ يعشـن في شـقق صـغيرة، أما أنا فكان بيتي كبيرًا، وله فناء خلفي واسع؛ لذلك وافقت على طلبهن، وكنت سـعيدة بوجود كثير من النسـاء يضـحكن، ويأكلـن في ذلك الفناء الـذي غالبًا ما كان مهجورًا. قمت بتزيين المنزل بسلاسـل بلاسـتيكية من الأضـواء، وجلبت النساء الطعام معهن، وفي أثناء الحفلة أخبرتنا امرأة سعودية بأن زوجها كان مدهوشًا؛ لأنها استيقظت متحمسة في الصباح الباكر، فقد كان من عادتها أن تبقى في الفراش حتى الساعة ١٠:٠٠ صباحًا.

«أخبرت زوجي بأنني أحب أن أرى فدوى، فأنا أشعر بأنها أختي».

لم تدم حريتي وسـعادتي الجديدة طويلًا، فبعد أسـبوعين تقريبًا جاء (حماي) وأختان من أخوات حمزة لزيارتي، وحضـر أيضًـا إخوة حمزة الثلاثة للزيارة، وجميعهم يعيشـون في نيويـورك، وكان علـي الطبخ لهـم وتلبية جميع احتياجاتهـم. وكانت (أمـل) حينها في عامها الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين، ووقعت على عاتقي مسؤوليتها مرة ثانية، وذلك بمنعها عن إيذاء نفسـها. وفي إحـدى الليالي، وبينما كنـت نائمة ذهبت (أمل) متسـللة إلى الكراج، وشغلت السيارة، وعندما استيقظ حمزة في الصباح وجد أن بطارية السيارة قد نفدت.

علمـت أخيـرًا أنني حامل مرة أخرى، والسـبب الوحيد لهذا الحمل هـو أن والدي حمزة أخبـراه بأنـه علي أن أنجب طفلًا آخـر، فذهبت إلى الطبيب لأجري فحوصًـا، وبعد أن رجعت وجدت خزانة الأدوية مفتوحة، لم تأخذ (أمل) شيئًا، لكني قررت أن أضع أقفالًا عليها من باب الحرص.

ذهبـت في عطلـة نهاية الأسـبوع إلى المسـجد، ورافقتنـي (إيرما) لكـن كانت حماتي منزعجـة لأن حمـزة سـمح لي بالذهاب، بينما لا يسـمح لهـا زوجها بذلـك، إلا أنني تجاهلت اعتراضـها، وذهبت إلى المسـجد. وعندما عدت سـألت حماتي حمزة بصـوت متذمر: لماذا قمت بإغلاق جميع الأبواب؟

«أنا لست حرامية يا حمزة، عليها أن تثق بي».

وأيّدها (حماي)، قائلًا: «حتى لو تركت فدوى ذهبها على الأرض لن تأخذه أمك».

لم يقل حمزة شيئًا، أما أنا فقد حاولت قدر المستطاع أن أتصرف على سجيتي معهم، سألت حماتي عن أحوالها، وحاولت أن أساعدها، أثر ذلك فيها، واعتذرت عن تعليقاتها، على الأرجح لأني كنت حاملًا.

في شهر آب ذهبنا في رحلة عائلية إلى شلالات (نياجرا). استأجر حمزة سيارتين كبيرتين، ونزلنا في فندق مدة أربعة أيام، بقيت أنا في غرفة مع أبنائي، وبقي حمزة في غرفة أخرى مع عائلته، وعندما زرنا الشلالات وقفت وحيدة بعيدًا عن حمزة، أدخلني هدير الماء والضباب الأثيري في حالة تشبه الحلم، ووجدت نفسي أفكر في أحمد، حتى بعد كل تلك السنين. وتساءلت كم ستكون حياتي مختلفة لو تزوجته بدلًا من حمزة؟، وكيف سيكون أولادي لو كان أحمد والدهم؟ اعتقدت أني رأيت وجه أحمد في الماء، وانحنيت للأمام لأنظر نظرة أقرب.

(سيدتي! سيدتي!).

صرخ المتفرجون ليعيدوني إلى الواقع، ثم نقرني أحدهم بأصبعه على كتفي، قائلًا:

«هل أنت بخير؟».

«نعم، نعم. أنا بخير، شكرًا لك».

انسحبت بخجل، وانضممت لعائلتي، تاركة ورائي تخيلات عن الحياة المختلفة التي كنت سأحظى بها لو لم أجبر على تزوج حمزة.

وأخيرًا في نهاية شهر أيلول قررت عائلة حمزة أنه حان الوقت للرجوع للأردن. وخطط والداه للانتقال إلى فلسطين ليمضيا مدة تقاعدهما وبقية حياتهما هناك. فقد كانا يبنيان بيتًا ضخمًا هناك، وكانا على أحرّ من الجمر للانتقال للعيش فيه، شكرتهم على زيارتهم، وتمنيت لهم رحلة آمنة.

في بداية عام ١٩٩٣م عادت مرشدة مجموعة النساء في المسجد إلى بلدها لبنان، وطلبت مني النساء الأخريات أن أحلّ محلّها. كنت في ذلك الوقت على وشك ولادة طفلي الثالث، لكني وافقت، وبدأت أحضر محاضرات عن الإسلام والقرآن.

وعندما حان الوقت تقريبًا للولاده اتصل حمزة بأخيه حسن، الذي كان، ولا يزال طالبًا في الجامعة في مقاطعة كوينز.

«فدوى على وشك الولادة. هل تستطيع أن تحضر هنا، وتعتني بيوسف وأنس في أثناء بقاء أمهما في المستشفى؟».

وافق حسن على أن يعتني بولديّ أخيه وفي اليوم المقبل استقل قطارًا من كوينز إلى شيتانكو، وأحضره حمزة بسيارته من المحطة.

في ٣ نيسان ١٩٩٣م ولدت أول بنت لي، وأسميتها (سارة). وكنت أعرف منذ يوم حملي الأول بها أنها ستولد أنثى؛ لأني رأيت في منامي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأخبرني بأن هذا الطفل سيكون أنثى.

بعد أن ولدت سارة اكتشفت أن الناس في هذه البلدة الصغيرة مختلفون عن الناس في مدينة نيويورك. فقد كانوا اجتماعيين وطيبين، وحاولوا مساعدتي بقدر الإمكان. وكانت النساء اللواتي تعرفت إليهن في المسجد يحضرن لي طعامًا طازجًا كل يومين، حتى إن جارة أمريكية الأصل عرضت علي أن تطبخ لي الطعام بعد أن ركل ابنها الكرة نحو فنائنا الخلفي. طارت الكرة فوق السياج، ودخلت فناء بيتي.

قرعت والدته جرس الباب: أنت تبدين متعبة. هل أنت مريضة؟».

«لا. لقد غادرت المستشفى البارحة ولدت طفلة اسمها سارة».

«أنا لم أعرف أنك كنت حاملًا! علينا أن نطبخ لك!».

«شكرًا لك، لكن لدي ثلاجة مليئة بطعام طبخته صديقتي لي».

لم أستطع إخبارها بأن زوجي لا يسمح لي بزيارة الجيران، أو التواصل معهم. لذلك اعتذرت، قائلة: إنني مشغولة بأطفالي والاعتناء بمنزلي، لا أدري إن كانت قد صدقتني أم لا، لكن لم يخطر ببالي شيء آخر أقوله لها، باستثناء الحقيقة التي لم أستطع البوح بها.

كنت حريصة على تجنب جاراتي والتفكير في أعذار مقنعة عندما تدعوني صديقاتي في المسجد لمناسبات غير قراءة القرآن، وكنت أشغل نفسي بالاعتناء بولديّ وابنتي الرضيعة. كانت بقية تلك السنة مليئة بتغيير الحفاظات والإرضاع وإرشاد مجموعة النساء أيام السبت.

وقد ركزت جهودي على تربية أولادي تربية حسنة، وحلمت بمستقبلهم كلما شعرت بالحزن على كل ما فقدت.

اعتمدت أيضًا على إيماني لتحمل حياتي الزوجية. فالقرآن يبين أن جميع المؤمنين سوف يُبتلون، ويُمتحنون، ولا نعرف متى أو أين أو أي نوع من الامتحان سيواجهنا، لكنه سيحدث للجميع، ويمكن أن يكون هذا الامتحان صعبًا أو سهلًا، إلا أنني أشعر بالراحة، عندما أفكر في مواجهة هذه الامتحانات والصمود، سوف يجعلني إنسانة أقوى، ومهما يفعل حمزة بي، فإن الله سيرى كم أعاني، وكيف أستجيب لتلك المعاناة.